

المناظرات الإباضية المالكية في بلاد المغرب الإسلامي حتى نهاية القرن 06هـ

د. عمر بالبشير،

الطالب الدكتورالي زقاويمحمد،

جامعة معسكر .

الملخص:

عرفت بلاد المغرب الإسلامي مع حركة الفتح الإسلامي وفود عدة تيارات مذهبية عقدية وفقهية تباينت تصورتها واختلفت مفاهيمها في فهم الدين مما نتج عن هجلا واسعا بين هذه التيارات الفكرية، تجاوز حدود الحوار السلمي أحيانا الى تعصب فكري وأفضى بعض الأحيان الى صدام عنيف، خاصة لما ينتصر السياسيون لرأي على حساب الآخر خدمة لإستمرار سلطتهم ونفوذهم وقد سجلت لنا كتب التاريخ العام وكتب السير والتراجم الكثير من أشكال هذا الصراع سواء السلمي أو العنيف الذي حسم في الأخير الشكل الفقهي والعقدي لبلاد المغرب الإسلامي، تركز مداخلة على رصد الصراع الفكري السلمي بين الإباضية والمالكية من خلال المناظرات التي كانت بينهما حتى نهاية القرن 06هـ، لما تمثله هذه الوسيلة من فعالية فبالرد على المخالفين وتثبيت المذهب في نفوس أتباعه، ذلك ما يتناسب مع المرحلة التي كان يعيشها المذهب الإباضي، فالصراع الفكري كان على أشده بين مختلف المذاهب والفرق، بعد أن توفر لها رصيда مهما من الإرث العقدي الكلامي فتوجه أعضاؤها إلى حسم المسائل العقدية، من خلال التماس الحجج العقلية والنقلية، عن طريق التعليم والتلقين أو عن طريق المناظرة أو كتابة الردود والتأليف. خاصة مع ظهور حلقة العزابة في بداية القرن الخامس هجري، التي وفرت جو تربوي وعلمي ترسخت من خلاله أقدام المدرسة الإباضية رسوخا متينا في بلاد المغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: الإباضية ، الأشاعرة، المناظرات، علم الكلام، المالكية

Résumé :

Les pays du Maghreb ont connu vers l'arrivée de l'Islam divergentes doctrines ayant plusieurs interprétations à la religion, la croyance ce qui a déduit une controverse qui a dépassé un dialogue pacifique, aboutissant même à un conflit

Les politiciens eux, pour pouvoir favoriser leurs domination, soutiennent un avis vis-à-vis l'autre, et les grands livres d'histoires ainsi que les livres d'autobiographie ne sont qu'une affirmation

Parmi ces affrontements que se soit pacifique ou d'ordre concret, on cite ce qui se passe entre les Ibadites et les Sunnites jusqu'à la fin du 6^{ème} siècle hégirien

Partant des démonstrations, et des explications, et des preuves à travers les leçons, et les instructions de moralité, ils parviennent à asseoir leur dévotion chez leurs protagonistes, ce qui a permis de fixer et de mettre la plateforme de cette dévotion est l'avènement du groupe AZZABA au début du 5^{ème} siècle hégire.

Mots clés : Ibadites – Malikites - Ash'aris – Débats - Théologie

تعتبر المناظرات (المناظرة في اللغة مشتقة من الفعل ناظر، يقال ناظر فلاناً أي صار نظيراً له، وهي أسلوب من أساليب الحوار العلمي يبنى على الجدل، والرخصة في المناظرة هي ترغيب الناس في طلب العلم حسب الغزالي، أبو حامد الغزالي. 53: 2005) من أهم الوسائل الفكرية والأدبية لنشر دعوة مذهبية ما والدفاع عنها ومناقشة المذاهب الأخرى، فهي مجال رحب تتاح فيه الفرصة لإبراز القدرات العلمية والبراعة في ترتيب الحجج، الهدف منها إظهار الحقيقة، ومن ثم يتطلب فيمن يكون أهلاً للمناظرة الزاد المعرفي الكبير وسعة الأفق، تعقد بين طرفين مختلفين في المذهب أو العقيدة لبحث مسألة من المسائل الفقهية أو العقدية من أجل إقناع الخصم بوجهة نظرها، عن طريق حوار مستمر في شكل سؤال وجواب تستخدم فيها طرق الاستدلال والبرهنة العقلية والنقلية. تعقد المناظرات في مجالس عامة أو خاصة في مراكز علمية أو في المساجد وحتى البيوت، ولا تشد الإباضية عن ذلك، بل نجد في ثايا المصادر الإباضية ما يدعو إلى اكتساب هذا الفن وإتقانه حتى يتعود أفراد المجتمع الإباضي على مناظرة مخالفيهم والرد عليهم، لما لهذا الأسلوب من أثر في إطلاق اللسان وتقوية الحجة، والقدرة على الارتجال، وحسن استخدام المعلومة كل ذلك مدعاة للثقة بالنفس من شأنه ذلك حفظ المذهب الإباضي من الذوبان في الآخر وترسيخه في وجدان الأتباع، وتوجيههم فكرياً ليكونوا دعاة المذهب في المستقبل، بل هي عندهم وسيلة من وسائل التربية وإثبات المستوى العلمي، ما لم تؤدي إلى تغيير الصدور (الدرجيني، أ. د ت: 79)

الدعوة إلى اتقان المناظرة وفن الكلام:

لم يرد عند علماء الإباضية بالمغرب الإسلامي تبديع من يشتغل بالكلام كما هو الحال عند المالكية، بل رغبوا فيه وأثوا على أصحابه، وجعلوه من اختصاص النخبة، قال ابن الصغير "ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلق

غيرهم كان سبيله كذلك" (ابن الصغير، 1986: 102) في هذا تعبير عن الوضع الثقافي في بلاد الرستميين بتيهرت وقد أطلق عليها عراق المغرب لما كانت تعج به من تعدد المذاهب والفرق، وقد كان هذا المناخ الفكري باعث على تطور فن الجدل والمناظرة واكتساب مهارة الرد، ومن ثم كان التكوين وإعداد لطلبة يقتضي اكتساب مهارة الجدل الكلامي بعد استيعابه العلوم المساعدة على ذلك كإتقان اللغة العربية والتفسير والفقه فالتنافس الفكري كان شديدا بين الفرق والمذاهب (بحاز، إ. 1993: 294-295) فكان تعلم الكلام تتويج للمشوار الدراسي يعبر عن المستوى العالي لمن اكتسب طرائقه، وما زاد في هذا التنافس أيضا الإفتراقات الإباضية وما كان بينها وبين الفرقة الأم (الوهبية) من أخذ ورد جعل تاريخ المذهب الإباضي في المغرب الإسلامي يتسم بالجدل والمناظرة (بحاز، إ. 1993: 294-295) استمر هذا التوجه في التربية والتعليم بحدة أشد بعد سقوط دولة الرستميين خاصة وأن الظروف الطارئة بدخول الفاطميين كانت توجب الحزم لتحقيق الهدف المنشود بعد أن دخل الإباضية في مرحلة الكتمان (مرحلة من مراحل الإمامة عند الإباضية وهي أربعة: الظهور والدفاع والشراء والكتمان، فالكتمان ملازمة الأمر سراً بلا إمام كما هو الحال مع رسول الله بمكة، وأما الظهور تولية أمام عادل تُسند إليه الأمور وحاله مع رسول الله في المدينة، وأما الدفاع أن يدهم أهل الكتمان بدهمة فيولون عليهم من يدفع عنهم العدو كدفاع أهل النهروان. والشراء كحال أبي بلال بن مرداس انظر: (الدرجيني، أ. د: ج2، 364). (ليفتشكي، ت. 2000: 207) فقد ذكر الشماخي أثناء الحديث عن أبي القاسم يزيد بن مخلد (ت358هـ/968م) (من علماء الكلام الإباضية، كانت له مكانة بين قومه وهو المقدم عنده، وكان من المقربين عند الخليفة المعز الفاطمي (ت365هـ/975م) قال في حقه المعز "أما يزيد فلم تلد العرب مثله"، تكدرت العلاقة بينها بسبب اتهامه بالتحضير للخروج على الفاطميين وأمر المعز واليه على الحامة بقتله، فتارت جموع الإباضية ببلاد المغرب في طلب ثأره: معجم أعلام الإباضية. 2000: ج2، 467-468) وأبي خزر يغلا بن زلتاف (ت380هـ/990م) (فقيه ومتكلم إباضي، من شيوخه أبو القاسم يزيد بن مخلد وحسون بن أيوب ثار ضد الفاطميين مع صديقه أبي نوح سعيد بن زنغيل إثر مقتل أستاذه أبي القاسم يزيد بن مخلد

انهزم أمام الفاطميين في واقعة بغاي سنة (358هـ) ثم وقع صلح بينه وبين المعز الفاطمي سنة (359هـ) سافر مع المعز إلى القاهرة سنة (363هـ)، وتوفي بها، أنظر: (الشماخي، 2009: ج3، 916) له كتاب في علم الكلام "الرد على جميع المخالفين" حققه عمرو خليفة النامي) أنهما تعلموا الكلام عند حسنون بن أيوب (الشماخي، 2009: ج2، 523) وهي دلالة واضحة على انتشار فن الكلام والسعي إلى اكتسابه تأقلماً مع الواقع الفكري في إفريقيا وذكر الشيخ أبو محمد ماسكس بن الخير (ت491/1097م) (محدث إباضي نشأ بالقيروان، أخذ الأصول عن محمد بن ويسلان بجرية، استقر في واد ريغ بورجلان، اعتمد عليه أبو الربيع الوسياني في رواياته على كتاب السير، وكذلك أبو زكريا في كتابه السير (الشماخي، 2009: 1016) من أخبار عبد الله بن مانوج اللماثي الهواري (ق5هـ) (جعله الدرجيني من الطبقة التاسعة (400-450هـ) من فقهاء الإباضية السبعة اللذين شاركوا في التأليف الجماعي (موسوعة فقهية) بغار أمجماج بجرية والمعروف بدوان العزابة (الدرجيني، د: ج2، 400)، (معجم أعلام الإباضية، 2000: ج2، 271) أنه جاز على الشيخ أبي محمد عبد الله في مسيره إلى جربة قال: فسأله ابنه: في أي باب من العلم أنظر فيه الكلام أم الفقه، فقال لي أنظر في الكل، أي بني، فإنك محتاج إلى ذلك كله، قال: فقلت له: إن لم يحتمل ذهني ذلك كله، فقال له: دينك إذا، أي بني. (الوسياني، 2009: ج2، 771) وفي رواية الشماخي "اقرأ الجميع، قلت: فإن قصر فهمي، قال: فدينك علم الفروع" (الشماخي، 2009: ج2، 585، الدرجيني، ج2، 402)

وذكر أبو الربيع سليمان بن زرقون (ت471/1079م) (من أنجب تلامذة مؤسس حلقة العزابة والساعد الأول له رغم أن مولده لم يكن في ورجلان إلا أنه قضى شطراً كبيراً بها عرف بكثرة رحلاته في مواطن الإباضية من أهم آثاره كتاب "التحف المخزونة والجواهر المصونة" وهو كتاب في العقيدة، انظر: (معجم أعلام الإباضية، ج2، ص216) أن أبا عبد الله محمد بن بكر (345-440/956-1049م) (جعله الدرجيني من الطبقة التاسعة (400-450هـ) ترجم لسيرته في 16 صفحة "أسس قواعد السيرة" وله في كل فن تأليف كثيرة، وأكثرها الحجج والبرهان" انظر: (الدرجيني، د: ت: 377) مؤسس حلقة العزابة سنة (409/1018م)

بورجلان، أبرز شخصية إباضية في القرن 5هـ، قال عنه شيخه أبو نوح سعيد بن زنگيل إن كنت أفهم شيئاً فإن هذا الفتى هو الذي يحيى الدين، باعث الحركة العلمية بورجلان في القرنين 5هـ، ينسب إليه رد قبيلة بني مصعب البربرية التي كانت تجاهر بالعقيدة المعتزلية إلى المذهب الإباضي رغم أنه لم يترك تأليفاً كلامياً ينسب إليه، مع ذلك نقل تلامذته آرائه الكلامية، خاصة تلميذة المباشر أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي في كتابه التحف المخزونة، أنظر: (أبو زكريا، ي. 1982: 263)، (النامي، ع. 2002: 222) كان يحرض تلاميذه على الاجتهاد والعزم ويقول: أنظروا في هذه المسائل، يعني التوحيد والكلام والحجة، لئلا تعبدوا غير الله وأنتم تصومون وتصلون (الوسيان، 2009: ج2، 915-916) فهي دعوة إلى عبادة الله على بصيرة، وكان هو (أبو الربيع) ممن تعلم الأصول على محمد بن بكر، ثم سافر إلى جربة يريد التعمق في الفقه هو ومجموعة أخرى من تلامذة محمد بن بكر عند الشيخ أبي محمد ويسلان بن بكر (حي بعد 431/1039م) كانت له حلقة علم بجربة له كتاب "الوصايا والبيوع"، جمعه تلامذته من الدروس التي كان يلها في الحلقة، انظر: (معجم أعلام الإباضية. 2000: ج2، 448) فكانت مشائخ بني يهراسن (يهراسن قبيلة إباضية شمال طرابلس، كانت لهم هجرات إلى جزيرة جربة بتونس حالياً وهي من مراكز الوهبة في الجزيرة في القرن الرابع هجري، انظر: (الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص882) يجتمعون اليهم ويؤيدونهم على عزمهم تعلم علم الكلام، وأرسلوا في طلب تلامذة محمد بن بكر ممن جاء لطلب الفقه يرغبونهم في تعليم فتيانهم علم الكلام (أبو زكريا، ي. 1982: 282)، (الدرجيني. د ت: ج1، 192) فكانت حلقتان، حلقة أبي محمد ويسلان في الفقه، وحلقة أصحاب الحجة والكلام، وقد تفوقت الأخيرة على الأولى قال أبو زكريا "فلما رأى الشيخ أبو محمد كثرة أصحاب الكلام وقلة أصحابه، انتقل بمن يتعلم عنده الفقه إلى بيت قبالة المسجد الكبير" (الدرجيني. د ت: ج1) بل جعلوا الكلام قبل التخصص في الفقه، كانت رحلة تلامذة محمد بن بكر إلى جربة للتعمق في الفقه إلا بعد أن استوفوا حقهم من الكلام عند شيخهم، ولعل ذلك من أساليب التربية العلمية والدينية الرائجة عند الإباضية بعد الدخول في مرحلة الكتمان، فقد كان الشيخ أبو محمد واسلان بن يعقوب

المزاتي(النصف الثاني من ق4هـ) جعله الدرجيني من الطبقة الثامنة(350-400هـ/1009.961م) من تلامذة أبو القاسم يزيد بن مخلد في الأصول والكلام، سجنه الفطميون لعلاقته بأبي القاسم، أنظر: (معجم أعلام الإباضية. 2000: ج2، 449) ممن يتعلم الكلام والأصول عند أبي القاسم مخلد فلما قضى وطره شاقق نفسه لتعلم الفروع فاستأذن أمه في السفر الى جبل نفوسة.(الدرجيني. ج2، 370-371)

وقد كان أبو هارون موسى الجلامي(حي بعد 283هـ/898ممن علماء الإباضية بجبل نفوسة، وهو من تلامذة أبي القاسم سدرات البغطوري، أنظر: (معجم أعلام الإباضية. 2000: ج2، 432) يتعلم عند أبي القاسم سدرات البغطوري(ت313هـ/925م)(هو حلقة في سلسلة نسب الدين (رواية العلم في المذهب الإباضي من عالم إلى آخر)، من بقايا العلماء بعد واقعة مانو سنة283هـ/896م) ضد الأغلبية مع عبد الله بن الخير، أنظر: (معجم أعلام الإباضية. 2000: ج2، 169) ثلاثين سنة الأصول والحجة والمناظرة. ويقولون للفقه علم العجائز"(الشمأخي. 2009: ج2، 436) ما يؤكد أن سقوط دولة الرستميين بالمغرب الأوسط لم يكن يعني زوال المذهب الإباضي، بل على العكس من ذلك زادهم الحدث عزيمة بالتشبث بعقيدتهم بفعل نظام العزابة وأسلوبه في التربية والتعليم(المجذوب، ع. 1975: 213)

حدود المناظرة وشروطها:

أفرد أبو يعقوب الورجلاني فصلا للمناظرة وشروطها في كتابه الدليل والبرهان وذلك في خضم الرد على الأشاعرة في باب الصفات، أولها الاتفاق بين المتناظرين أن الله لم يفرد نفسه بلغة غير لغتنا التي استعملناها بيننا، فمراعاة اللسان التي يقع به التناظر من شأنه أن يؤدي الى وضوح المعنى، وبيان قوة الحجة وصحتها وتماسك البرهان سواء كان عقليا أو شرعيا أو لغويا.

ألا يطلق على الباري سبحانه ما لم يأذن به الشرع، أو معنى يحيله العقل، لاتفاقنا نحن وهم على أن الله ليس كمثل شيء، الإقرار بالحق إذا ظهر والإذعان له(الورجلاني، ي. 2006: 54-55)

لا يكتفي الجيطالي بالشروط التي تتعلق بمحتوى المناظرة بل يشرحها ويزيد عليها شروطا تتعلق بالشكل حتى تحقق أهداف المنشودة:

أن تخلو المناظرة من الخداع الفكري والتلاعب بالألفاظ والعبارات بغرض تضليل الخصم واستمالة الجمهور والتشفي رياءً وسمعة، ولا ينبغي له أن يكون معجباً بجداله.

ومن الأحسن أن تكون المناظرة في خلوة، لأن الخلوة أجمع للفهم وأدرك للحق، وحضور الجمهور يحرك دواعي الرياء، ويهيح الحرص على نصرته كل واحد منهما لنفسه محقاً كان أو مبطلاً، ويبعد حب الانتصار والظهور.

أن يكون المناظر من المجتهدين حتى إذا أدرك الحق مع الخصم ترك رأيه، أما إذا كان من المقلدين فقد يقع في الإحراج إذا ظهر له ضعف رأي صاحب مذهبه، وأن يكون الهدف من المناظرة طلب الحق لا غير (الجيطالي، إ. 1983: ج1، 141-144)، (حجازي، ع. 2000: 140) بعيداً عن التعصب والانفعال، فليس الغرض إفحام الخصم وترهيبه وتهديده، وليس الغرض الشهرة ونيل المنصب والتقرب من الحكام، وينبغي الالتزام بالنتائج التي وصلت إليها المناظرة وعلى المناظر أن يتجنب السخرية والشتيم، والحسد والحقد والاستكبار، ويقدم على ذلك تقوى الله.

هذه مجموعة من الخصائص الخلقية والعلمية والنفسية التي يجب أن تتوفر في المناظر وهي ما يعرف عند أصحاب علم المناهج بـ "الروح العلمية" التي تمكن صاحبها من بلوغ الحقيقة، وإن كانت هذه الخصائص تعبر عن ما يجب أن يكون وهو المطلوب إلا أن واقع حال هذه المناظرات يُنبئنا أنها كثيراً ما كانت لأغراض غير علمية.

من صور التعصب:

تعود جذور اختلاف الإباضية مع المالكية إلى الأحداث الأولى التي عرفت في بلاد المشرق وكان من محاورها شرعية خلافة عثمان بن عفان، وخلاف علي بن أبي طالب وأصحابه في قضية التحكيم، فتأييدهم للمُحكِّمة والخروج عن الإمام مناقض للموقف السني الذي يرفض الحكم على الصحابة الأمر الذي نتج عنه بروز مقالات دينية ذات صبغة سياسية اجتماعية متناقضة تماماً، كمسألة الإمامة وشروطها، وحكم مرتكب الكبيرة، ومسألة خلق القرآن، والرؤية، لكن هذا لا ينفي طابع التقارب بينها في مقالات أخرى كمقالة القدر، والحجة (أولية النقل على العقل)، ومقالة الجبر والاختيار، انعكست هذه الخيارات على الصراع الفكري في

بلاد المغرب بين الإباضية والمالكية ومن صور ذلك ما نقله الونشريسي في كتاب المعيار من فتاوى المالكية في حق الإباضية، فقد أفتى أبو القاسم اليسوري (ت 460/1068م) في جماعة من الإباضية أظهرها ممارسة الشعائر الدينية على مذهبهم بمسجد خاص بهم، أفتى بمنع دخول عزابتهم إليه ويعمر بأهل السنة، وأن أنكحتهم من السُنَيَات تقسخ ويضربون إلى أن يتوبوا (الونشريسي، أ. 1981: ج2، 445-446)، (وكذلك ج10، 149-153) وترد فتوى أخرى من أبي الحسن اللخمي (ت 478/1085م) تشبه الأولى بعد أن ورد إليه سؤال في قوم من الإباضية أظهرها مذهبهم في وسط مالكيولهم مسجد خاص يجتمعون فيه، يصلون صلاة العيد في مصلى خاص بهم فعزم العامل على الإقليم هدم مسجدهم وإلغاء عقود أنكحتهم مع السُنَيَات، فأجاب: "إن ذلك من شأنه أن يفسد على الناس دينهم، ومن واجب الحاكم أن يمنعهم عن ذلك، فإن لم يمتنعوا أدبهم وسجنهم وبالع في ضربهم وأما المساجد فلا تهدم بل تخصص لأهل السنة" (الونشريسي، أ. 1981: ج2، 446-447) (الهادي روجي ادريس، 1992: ج2، 360). ووردت فتوى أخرى في كتاب المعيار تحذر من تعليمهم، والاقتصار فقط على تحفيظ القرآن الكريم لأولادهم، وإن غلب الظن أنهم يستعينون بتعلم القرآن على تعلم كتب مذهبهم يحرمون من ذلك، وإن علمتم فأدوا عنكم المظالم فلا بأس (الونشريسي، أ. 1981: ج8، 237-238 وكذلك ج2، 446)، توحى هذه الفتوى بتهمة الخوارج التي ظلت تلاحق الإباضية عبر العصور رغم برأتهم الواضحة من ذلك فقد كانت رسالة عبد الله بن اباض إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان صريحة في ذلك، ومناظرات الإمام جابر بن زيد للخوارج تؤكد براءة الإباضية منذ نشأتها ببلاد المشرق الإسلامي من هذه التهمة، وتذهب كل المؤلفات الكلامية الإباضية في بلاد المغرب الإسلامي إلى المعنى، ومن صور التعصب كذلك أن بعض المصادر السنية تتسب للإباضية فرقا لا نجد لها ذكر في المصادر الإباضية (الشمخي، 2009: ج1، 54) وإن ذكرت فمن جهة التبرؤ منها، واضح من هذا اعتبار الإباضية من الخوارج وهي تهمة لازمتها طوال تاريخها في بلاد المغرب، مما يوحي أن المالكية لم تتوفر لديهم فرصة الاطلاع الجيد على حقيقة الإباضية (سيف، س. 2015: 210)

انعكس ذلك على أدبياتهم الى يومنا هذا فلا تكاد تخلو كتاباتهم من جمع الحجج التي تبرؤهم من تهمة الخوارج.

وقد تجاوز الاختلاف العقدي والفقهي بينهما إلى حد غفلة المصادر السنية عن الحديث عن مقاومة الإباضية للشيعة في بلاد المغرب الإسلامي (عن قصد أو غير قصد) حتى يحظى أهل السنة وحدهم بشرف مقاومة التشيع، وحتى لا يسجل التاريخ أي فضل للإباضية في مقاومة التشيع، وتتكرر هذه الغفلة كذلك مع الحديث عن القبائل الزناتية بالمغرب الأوسط والأدنى حاملة لواء الإباضية في مقومتها للفاطميين دون الإشارة إلى مذهبها لتقزيم دور الإباضية في مواجهة التشيع (حافظي، 2008: 88-

97)، في مقابل ذلك تذكر المصادر التاريخية الإباضية صورا تمييزية أخرى من ذلك الخبر الذي أورده الوسياني في كتابه السير أن أبي نوح صالح (557/1161م) ذكر أن أبا عبد الله كان بحلقته في وغلانة (من قرى ورجلان) ووجد فيها رجلا عالما من الحشوية يقال له: علي بن حمزة الرقاري فقال لمن حضر من شيوخ وغلانة عند من ضيافة العزاب اليوم؟ فقبل له: عند صالح بن حسان، فقال نعم، هو لها أهل، فلما حضر الطعام، دخل العزاب الدار قبله، وبعثوا الى علي بن حمزة، فلما جاء تفصح له العزاب فكل واحد يدعو الى الجلوس بجانبه، فجعل يحلف لهم لا يقعد فقال لهم عبد الله: لا يقعد إلا حداثي (بجانبني)، فقعد، ومرت الأيمان لا يبالي بها، فجعل يأكل ووقع كساؤه حتى بدت أحقاؤه وخواصره من نهمه وهلهه، فأخذ العزاب اللحم فأعطوه، وقد وصاهم أبو عبد الله على ذلك، إذ هو وصية العزاب إذا جلس معهم غيرهم من أهل البلد، فكيف والحشوي (صفة لازمت المالكية وجماعة أهل السنة، وأحيانا أخرى يصفون بالمشبهة لموقفهم من مسألة الصفات)، فدفع له أبو عبد الله اللحم فحلف وأخذه وكل من دفع له سبق اليمين، ثم أخذ بعدها ولا يبالي باليمين وقال لأبي عبد الله: نحن العلماء كالخيط النعام نحك حيث أردنا بأعناقنا. فقال أبو عبد الله: أضل الله من أضله هذا لسوء أدبه ورغبته، وشدة جفائه وبرمه" (الوسياني، 2009: ج 2، 622-623).

يلاحظ من هذه الرواية نظرة الدونية لهذا الرجل حتى ولو كان عالما، ظهر ذلك من خلال عدم تأدبه في الأكل أولا، واليمين التي كان يتلفظ بها ولا يلقي لها بالاثانيا، في مقابل ذلك حسن أدب العزابة وشيخهم ومدى

كرمهم، والمتفحص للرواية جيدا يرجح أن الشخص الذي تحدث عنه ليس من أهل الفقه، فقد يكون شخصا له مكانة ومحبة عند قومه، ولا يمكن أن يكون عالما.

قد يصل التعصب الى استخدام العنف من ذلك أن رجلا طعن في دين الوهيبية من المخالفين في قرية من قرى بلاد الزاب في عهد فتوح بن أبي الحاجب المزاتي (ق4/10م) (جعله الدرجيني من الطبقة السابعة (300-350هـ) فقيه إباضي سكن إحدى قرى الزاب في النصف الأول من القرن الرابع هجري، انظر: (الدرجيني. ج2، 347) (الشماخي. 2009: ج3، 996) فغضب لذلك وأفتى بجواز هدر دمه، وقتل الرجل غيلة ولم يعرف قاتله عند قومه، وقد أشى الشيخ على القتلة وشكرهم على فعلهم. (الدرجيني. ج2، 347-348)، وإن كانت هذه النماذج في فترات تاريخية متقطعة لا تعبر عن الصورة الحقيقية للعلاقة بينهما، فصور الاعتدال والتسامح المذهبي بين المذهبين تكاد تطفئ على طبيعة العلاقة بينهما، فشهادة ابن الصغير في كتابه سير الأئمة عن عدالة الأئمة الرستميين وتسامحهم، والعلاقة الطيبة بين الرستميين بتهارت والأمويين بالأندلس، وتلمذ الطلبة الإباضية على علماء المالكية في الأندلس والقيروان وتلمذ طلبة العلم المالكية على علماء الإباضية في بتيهرت، وتداول تفسير عبد الرحمن بن رستم في قلعة بني حماد شواهد على التعاون على مستوى العلم والتجارة، فقد ذكر الدرجيني أن أحد شيوخ المذهب أبو محمد جمال المدوني (حي بعد 354هـ/967م) (قال عنه الدرجيني "فقيه الأسلاف. الشامل ما أشرف على الشتات وهو من السباق في العلم والورع والندى"، كان عاملا لأبو خزر يعلا بن زلتاف على ورجلان حين خرج على الفاطميين جهز قوة من ورجلان إلى بغاي إلا أن أبا خزر تعجل الخروج قبل وصول المدد من ورجلان فكانت الهزيمة مع من معه من الإباضية سنة 354هـ/967م) أنظر: (الدرجيني. د. ت. ج2، 345) كان يصلي بجماعة أكثرهم أهل الخلاف ممن يرى القنوت في الصبح (يقصد بذلك المالكية فهم يقتنون في صلاة الصبح على عكس الإباضية

والمسألة مسألة فقهية خلافية) فكان يقنت بالآيات التي فيها الدعاء وذلك من شأنه عدم فساد الصلاة على مذهب الإباضية، فيشكر نهويشوا عليه. (الدرجيني. ج2، 347)

المنظرات بين الإباضية والمالكية:

ومن صور التناظر بينهما ما ورد عن أسد بن الفرات (ت217هـ/828م) كان في مجمع من الطلبة يفسر قوله تعالى { فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني } (سورة طه، الآية 13-14) قال " ويل لأهل البدع، هلك هو الكهم، يزعمون أن الله عز وجل خلق كلاماً يقول ذلك الكلام المخلوق، وعن أبي عثمان سعيد ابن الحداد (ت بعد 302هـ/914م) (سمع من سحنون وكان يخالفه عرف بالجدل والمنظرة وقوة الحجة، اشتهر بمنظراته للشيعة وجرأته، كان الإباضية يعتبرونه منهم ربما لشجاعته في مناقشة المذاهب الحنفي والشييعي، كانت له ردود على آراء عبد الله بن يزيد مرجع النكارية في العقائد، وكان يسمى مدونة سحنون بالمدودة، مما جعله محل نقمة من طرف المالكية، ولعله سبب آخر يدعم ما ذهب اليه بعض الإباضية، وإن كانت المصادر القديمة لا تسعفنا في الجزم بذلك، له عدة كتب أهمها "كتاب المقالات" رد فيه على أهل المذاهب أجمعين، و"كتاب الاستواء"، أنظر: (الدباغ. 1968: ج2، 295) (الخشنى. 1994: 61-62)، ويستبعد محمد حسن محقق كتاب السير للشماخي أنه شخص آخر غير سعيد بن محمد بن الحداد، أنظر: (الشماخي. 2009: ج3، 940) قال: حدثت عن أسد أن أصحابه كانوا يقرأون عليه يوماً في تفسير المسيب بن شريك إلى أن قرأ القارئ {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ} (سورة القيامة: الآية 22-23) وكان أبو حفص سليمان بن حفص (ت269هـ/883م) (تذكره بعض المصادر أنه من المعتزلة، ويعتبره رواة الإباضية أنه إباضي بعد أن تاب من مخالفته لهم، قال الشماخي: "لو لم يكن إلا أحمد بن الحسين الأطرابلسي أو سليمان بن حفص الفراء لتبعته المذاهب"، مرد هذا الاختلاف الى التشابه الكبير بين الإباضية والمعتزلة في المسائل الكلامية، وقد كانت له منظرات مع محمد بن سحنون، انظر: (الشماخي. 2009: ج2، 415) (الهادي روجي إدريس. 1992: ج2، ص362) جالساً بين يديه فقال له: يا أبا عبد الله من الانتظار، وكان الى جانب أسد نعل غليظ فأخذ أسد بتلايبه وأخذ بيده

الأخرى نعله وقال: أي والله يا زنديق لتقولنها أو لأبيضن عينيكَ، قال نعم ننظره" (المالكي، ع. 1994: ج1، 265) ولا شك أن الإباضية مقصودة بهذا التبديع فقد ذكرت كتب التراجم أن سحنون بن سعيد (240هـ/854م) إمام المالكية في زمانه لما ولي القضاء للأغلبية عزل أصحاب الفرق المبتدعة عن الناس من خلال تفريق حلقهم التي كانت تقام بالجامع وطرد أهل الأهواء والبدع منه كانت فيه حلق من الصفرية والإباضية والمعتزلة" (عياض. 1998: ج347، 2-348) وهي صورة من صور تضيق المالكية على الإباضية في بلاد المغرب، هذا الموقف كان قدوة لمن جاء بعده من المالكية.

كان رد الإباضية حسب ترجيح المستشرق بيركوبرلي رسالة للإمام الرستمي أبو اليقظان محمد بن أفلح (281هـ/894م) (خامس الأئمة الرستميين حكم ما بين (261-281هـ/874-894م)، تولى الإمامة بعد أخيه أبوبكر وذلك بعد عودته من المشرق في رحلته للحج، تعرفت عليه عيون بني العباس وأودع السجن من طرف الوثائق (227 - 232هـ/842 - 874م) صادف ذلك سجن الخليفة لأخيه المتوكل العباسي (232 - 247هـ/847 - 861م)، بسبب رؤية في المنام " رأي كأن سكرًا ينزل عليه من السماء مكتوب عليه المتوكل على الله فقصها على أصحابه" فسرت على أن أخاه ينازعه الملك فجمع القدر بين المتوكل وأبو اليقظان فكانت بينهما صعبة، أطلق صراح أبو اليقظان من طرف الخليفة الجديد المتوكل بعد مقتل أخيه الخليفة العباسي، له تأليف في الكلام أهمها "رسالة في خلق القرآن"، تعتبر مرجع إباضية المغرب في مسألة خلق القرآن، يرجع تأثيره بمعتزلة بغداد في المسألة بعد مكوته فيها، عرفت أيامه انفتاحا على العلم والعلماء وكثرة المجالس والحلقات، أنظر: (ابن الصغير. 1982: 74 - 75) (ابن الأثير. 1987: ج6، 94) في خلق القرآن وهي رد على القاضي سحنون بن سعيد. (المبروك، م. 2011: 148)

ومن الذين اشتهروا بالمنظرة في عهد الأغلبية العنبري (260/874هـ) (ترجم له القاضي عياض وذكر أنه سمع من سحنون بن سعيد، و له مقام عند زيادة الله الأول، يحتمل أن يكون إباضيا رغم أن بعض المصادر تشير الى انه معتزلي بحجة قربه من زيادة الأول، ومناظرته للجعفري) (العقد الثاني من ق3) في خلق القرآن، ينحدر من قسطنطينية المعروف عنها أنها من مواطن

الإباضية بالمغرب الأدنى، وقد انتقد من قبل أبي حسان
اليحصبي (ت226هـ/841م) - (وسحنون ممن يؤخذ عنه، كان مفوها
حاضر الحجة = قويا على المناظرة ذابا عن السنة قليل الهيبة للملوك) - ،
بعد الخوض في هذا النوع من المسائل، وقال عنه أصحاب كتاب معجم
أعلام الإباضية أنه من المناظرين عن الإباضية إلا أن مصادرهم معاصرة،
وبقى الحكم عليه احتمالي لا يتجاوز الترجيح، أنظر: (المالكي. 1994:
ج1، 286) (المجدوب، ع. 1975: 142) الذي كانت له مناظرات مع
الجعفري السني في حضرة الأمير الأغلبي زيادة الله
الأول (201-223هـ/818-838م) الذي كان أول من دعا إلى مسألة خلق
القرآن. (المجدوب، ع. 1975: 141)

ذكر ابن الصغير مناظرة له مع أحد وجوه الإباضية يسمى سليمان ويكنى
أبا الربيع بعد أن أنكر عليهم الخوض في خلافات الصحابة، والتشنيع على
بعضهم خاصة وأن جماعة السنة توالي جميع الصحابة وتترضى عنهم، قال
ابن الصغير متحدثا عن الإباضية "وإن كنا للقوم مبغضين ولسيرهم
كارهين ولذهبهم مستقلين" انظر (ابن الصغير. 1986: 12، 27، 13): قال:
"من أين زعمتم وزعم أصحابك وغيرهم من الحجازيين وأهل العراق أن
الرجل إذا زوج ابنته البكر وهي صغيرة وأدركت أن لا خيار لها في نفسها،
وأنتم تقولون إن الرجل إذا زوج أمته وعقت أن لها الخيار ولا فرق بين الأمة
وبين الصغيرة، لأن الأمة لم يكن لها حكم في نفسها، وإنما كان
الحكم لسيدها، فلما عقت وصار الحكم إليها جعلتم لها الخيار،
والصغيرة لم يكن لها حكم في نفسها، وأن الحكم لسيدها. فلما
أدركت صار الأمر إليها. فلم منعموها ما أجزتم للأمة والمعنى واحد قال
ابن الصغير "إن صحة ذلك من القرآن { وَاللَّائِي يَتَسَنَّ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ
نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ
أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا } (سورة
الطلاق، الآية 4)، فيرد عليه خصمه: عجباً منك، أنا أسألك عن عقد
النكاح ونسخه وأنت تخبرني عن عدد المويسات (اللائي بلغن سن اليأس)،
وعدد اللائي لم يحضن، فقال ابن الصغير: فهل يقع طلاق من غير أن
يكون عقد نكاح؟ قال: لا، قلت في المويسات (التي بلغت سن اليأس)
فمنهن اللائي قد بلغن من السنين ما لا يحضن مثلهن، قال نعم، قلت:

واللأني لم يحضن من الصغر، قال: نعم، قلت: فأوجب الله عليهنّ عدداً، قلت أمن طلاق أم من غير طلاق؟ قال من طلاق، قلت: فيكون طلاق من غير عقد نكاح، فسكت ولم يرد جواباً" (ابن الصغير. 1986: 104-106) تبرز هذه المناظرة الاختلاف بين المتناظرين في تفسير الآية { وَاللَّائِي يَبْسُنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا } (سورة الطلاق، الآية 5) فابن الصغير فسر "لم" بأنها لا تعني النفى القاطع، فهي تنطبق على الفتيات الصغيرات اللائى لم يبلغن سن الحيض، بينما خصمه فسرّها على أنها تعني النساء المسنات (بحاز، إ. 1993: 300)

تظهر هذه المناظرة تفوق ابن الصغير على خصمه الإباضي في موضوع فقهي محض، لا تسجل المصادر الإباضية هذه المناظرة والتي على شاكلتها لأنها قد تكون مصدر إرباط للأتباع، ومن المحتمل أن تكون هناك مناظرات أخرى لا تذكرها المصادر الإباضية وإن كانت الموضوعية العلمية تقتضي من متقصي أحداث التاريخ تسجيل الأمجاد والبطولات والمآسي والانهازمات. وإن كانت هذه المناظرة تظهر تفوق السني إلا أنها تعبر عن روح التسامح المذهبي والفكري اللامحدود الذي كان يطبع الحياة الثقافية في العصر الرستمي وواضح من سياسة التسامح المذهبي هذه وانتشار الجدل وشيوع المناظرات ودعوة مختلف المذاهب لها أنها تهدف إلى محاولة إقناع الغير بمذهبهم.

وذكر أبو زكريا في كتابه سير الأئمة أن أبا القاسم يزيد بن مخلد (ت 358هـ/ 968م) لقي أبا إبراهيم المشبه (لم اعثر له على ترجمة، يرجح أنه مالكي المذهب، فقد ذكر أبو زكريا رواية تنيد ذلك، فقد سأل أبوعبد الله محمد بن بكر سأل الشيخ أبا نوح سعيد عن الرواية التي يؤثرها أهل التشبيه عن رسول الله (ص) قالو لم تمتلجهم حتى يضع الجبار قدمه، فتتزوي من نواحيها وتقول قطني قطني" فقال الشيخ: إن كانت الرواية صحيحة، فلها مخرج ومعنى قدمه ما قدم لها من أهل الشقاوة، قال الله تعالى { ويشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم }، وليس يريد قدم الجارحة. انظر: (أبو زكريا. 1982: 245-246) وكان من الوراقين في القيروان وهو يكتب تشبيه الله بخلقه، فجري بينهما كلام كثير حتى

قال له أبو إبراهيم "إن كنت تزعم أن الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض فأخبرني عمن أراد أن يبطل ربه كيف يقول، فرد عليه: يقول مثل قولك فانقطع الكلام بينهما" (أبو زكريا. 1982: 208) أي إذا وصفته بصفات الحدوث الزمت فناء الحادث فأبطلت بقاءه (الدرجيني. د ت: ج 2، 123)

ناظر المالكية أبا عمرو عثمان خليفة السوي في (القرن 10هـ) (أحد أعلام الإباضية البارزين نشأ في عصر ازدهرت فيه الحركة العلمية بورجلان قال عنه الشماخي "كان إماما في العلوم لاسيما الكلام من أهم أثاره كتاب "السؤالات" وهو كتاب في العقيدة و"رسالة في الفرق" أنظر: معجم أعلام الإباضية. 2000: ج 2، 288) بعد رحلته إلى الحامة لتفقد أحوال الإباضية فوجد أن البلاد صارت للمالكية، وتحول الكثير من الأتباع إلى المالكية بعد مقتل أبي القاسم مغلد بن كيداد وانتقال أبي خزر يعلى بن زلتاف (ت 380هـ/990م) (من كبار علماء الإباضية، قاد ثورة ضد الفاطميين انتقاما لمقتل صديقه أبي القاسم يزيد بن مغلد، ترك كتابا "الرد على جميع المخالفين" صحبه المعز الخليفة الفاطمي إلى القاهرة، ليأمن جانبه، انظر: معجم أعلام الإباضية. 2000: 478) مع المعز إلى القاهرة، فأراد أن يشد من عزيمة من بقي على مذهب الإباضية ويثبتهم على المذهب، ولما وصلت أخباره إلى المالكية قدموه للمناظرة فسألوه: هل يجوز في مذهبكم نكاح نساء؟ وكان رده إذا كان نكاح الكتابية جائز فكيف بالمسلمة، قالوا: نزلتنا منزلة اليهود والنصارى، فقام العامة عليه شتما وطردا، ونفوا الوهبية، وأكروهوا من بقي على الرجوع إلى مذهبهم وغسلوا المسجد الكبير من مساجد الوهبية، وزعموا أن ذلك تطهيرا له (الدرجيني. د ت: ج 2، 483-484) (الشماخي. 2009: ج 2، 639)

يظهر من سياق المناظرة أن إجابة السوي لا يقصد بها التحقير، فالمقصود جواز الزواج بالسنيات في المذهب الإباضي، إلا أن المحاور المالكي كان قصده مراوغة من كان في المجلس من العامة وشحنها تعصبا للمذهب، وقد وقع السوي في فخ حُضر له مسبقا فكان عليه أن ينتبه إلى مفعول كلمة الكتابية (اليهودية والنصرانية) التي أشارت عليه العامة، هذا النوع من المناظرات لا يحترم شروط المناظرة العلمية فالغرض منها التشهير بالخصم، ولم تكن مناظرات الإباضية دائما على هذه الشاكلة، فقد نزل أبو القاسم بن العمودي وكان من مشائخ المتصوفة

قادما من توزر على قاضي نقطة (عمر بن عزوزة النفطي) فأكرمه وكان ممن دُعي إلى حضور المجلس أبو الحسن علي بن العزابي (كان المالكية يطلقون هذا اللفظ على اتباع المذهب الإباضي بعد تأسيس هذا النظام، كان هذا العزابي (أبو الحسن علي) من المقرين عند القاضي وكان فقيها، وربما دُعي إلى المجلس للمناظرة) فعرفه به فلما علم أنه إباضي قال بن العمودي "أهومن اللذين ييغضون عليا- يقصد علي بن أبي طالب- قال العزابي: من أنابك هذا يا شيخ؟ قال: كذا يذكرون عنكم، قال: لا، قال: كان أبي من فقهاء الوهبيية وقد سماني عليا، ثم أخذ معه في مواضيع أخرى، حتى استمال قلبه ولم يفترقا حتى قال له أبو الحسن أريد أن لا تفارقني مدة أقامتي بهذا البلد" (الدرجيني. د ت: ج2، 516-517)

كان الحذر مطلوباً بقوة عند الإباضية في التعامل مع المخالفين فقد لام الشيخ ميمون بن أحمد المزاتي (جعله الدرجيني من الطبقة الحادية عشرة) (500-550هـ) من علماء درجين بجنوب تونس، انظر: الدرجيني. د ت: ج2، 511) جماعة من الوهبيية حين قدموا يوسف بن أحمد الوسياني (ق6/12م) (من تلامذة أبي عمار عبد الكافي وأبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي، هو الذي أملى كتاب السؤالات ترك كتابا يعرف بـ "التقييد" في أشعار مشائخ الإباضية وهو باللغة البربرية، انظر: (معجم أعلام الإباضية. 2000: ج2، 493) لرجل من المخالفين (ذكر الدرجيني أن هذا الرجل قدم من توزر إلى نقطة فهو إما مالكي أو نكاري ويرجح أنه مالكي، باعتبار زوال شدة تأثير النكارية في هذا العصر، وزوال الفرق الإباضية الأخرى، من جهة أخرى سيادة المذهب المالكي خاصة بعد هجرة الفاطميين إلى مصر) طلب مناظرتهم وهو رغم علمه وحفظه ليس أهلاً للمناظرة، قال الدرجيني "فأبرزوا له يوسف فذاكره في مسألة يحفظها سردا، فتلثم فيها ولم يتكلم بفائدة تقنع" (الدرجيني. د ت: ج2، 512) ولم يذكر موضوع المناظرة.

ومع ظهور الأشاعرة ببلاد المغرب الإسلامي في بداية القرن الرابع هجري كانت المقالات الإباضية قد اكتملت واتضحت، هذا بعد تردد علماء المالكية في قبول منهج الأشاعرة في تناول المسائل العقدية، فكان قبول المالكية للمقالات الأشعرية لا بوصفها جدلاً وإنما كقضايا إيمانية يسلم بها، وتبني علماء المالكية المقالات الأشعرية (تبني علماء المالكية مقالات

الأشعرية بعد تردد وفحص وهي تعبر عن انخراط أهل السنة في الكلام لضرورة الدفاع عن مقالاتهم) أصبحوا يمتلكون قاعدة كلامية متناسقة تمكنهم من الرد على خصومهم ردا منظما (المنصوري، م. 2011: 285) أخذ الجدل الكلامي صورة جديدة من الصراع الفكري بين المدرستين تجسد ذلك في أعمال أبي يعقوب الوردجاني وأبيعمار عبد الكافي، وقد استفاد الكلام الإباضي من الأسلوب الجدلي المعتزلي واستمدوا منه حججا لمقارعة الأشاعرة بعد أن تمكنوا من ناصية اللغة والمنطق اليوناني (منطق أرسطو) المحرك للجدل والمساعد له، بل أكثر من ذلك استخدموا حتى المقالات الأرسطية على نحو الممكن والمحال، واستحالة اجتماع الأضداد (كوبرلي، ب. 2010: 444) بل أبرزوا قواعد المناظرة وجعلوا لها قوانين منها السؤال والجواب، وقلب السؤال والبرهان بالخلف والعلة والدليل (طالبي، ع. 2013: 9-12)

وفي سياق الحديث عن الأشاعرة والرد عليهم ذكر أبو يعقوب الوردجاني هذه المناظرة: "وقد جرى لي كلام مع الفقيه يحيى بن أبي بكر بن الحسن بن الشيخ يوسف بن نفاث (لم نعر على ترجمته يحتمل من سياق المناظرة أن يكون أشعريا مالكيا، رغم ورود اسم إباضي (يوسف بن نفاث) في سلسلة نسبه، فاحتمال أن يكون تحول من الإباضية إلى المالكية، هو أو أحد آبائه) مناظرة في سلجماسة في مثل هذا (أي مسألة جواز الخروج عن الحاكم) فقال لي: أول من سن الخروج على السلاطين أبو بلال مرداس بن أدية (من أئمة المذهب الإباضي الأوائل (ت 61هـ/670م) شارك في واقعة صفين، قتل من طرف الأمويين هو وجماعته الأربعين جميعاً، أنظر: (معجم أعلام الإباضية، 2000: 411-412) فقلت له: إن له في ذلك أسوة حسنة، فقال: أو حسنة؟ فقلت: أو سيئة؟ فقال: ومن هو؟ فقلت: طلحة والزبير، فقال لي: إن طلحة والزبير اجتهدا فأخطأ، فقلت: ولعل هذا اجتهد فأصاب؟ فقال لي: أو أصاب؟ فقلت له: ولعله اجتهد فأخطأ؟ فقال: الله يغفر للجميع" (معمر، ي. 2003: 398)

وفي السؤالات (كتاب في أصول الدين والكلام ل أبي عمرو عثمان بن خليفة السوي يتضمن أكثر من 90 سؤالا، أنظر: (كوبرلي، ب. 2010: 50) قال الشيخ أبو عمرو عثمان بن خليفة: التقيت مع التقيوسي بنفطة فجرت بيننا محاورا ومناظرة حتى قال: عجا منكم أبا عثمان؟ لم تُسمون

صاحب الكبيرة كافر؟ لم لا تُسمّونه ضالاً فاسقاً وتُسمّونه كافراً؟ - وكان فقيها ونحويا- فقلت له: تُسمّونه فاسقاً؟ قال: نعم، فقلت له: كيف قال الله تعالى في سورة السجدة؟ قال: وكيف قال؟ فقلت: قال تعالى: {أفمن كان مومنا كمن كان فاسقا، لا يستوون} (سورة السجدة، الآية 18) فلمّا فهمها ووعاها قال: والله لقد ذكرتني شيئا لقد نسيته، وعلم أن الكفر والفسق واحد" (معمر، ع. 2003: 408)

استنتاج:

كانت المناظرات إحدى مظاهر النشاط العلمي الذي استخدمه علماء الإباضية للانتصار لمذهبهم في مجادلاتهم مع المذاهب والفرق المخالفة وأبأنوا عن مقدرة في الرد على مخالفيهم من خلال المستوى العالي في التحكم في فنيات الجدل من خلال المسائل الكلامية التي كانت تتداول بين المناظرين تدل على ذلك المصنفات التي وضعها أصحابها في هذا المجال، فكان لهم رصيد هام شأنهم شأن الفرق الأخرى في تطور الدراسات الكلامية ببلاد المغرب

ما يلفت الانتباه أن المناظرات الإباضية التي وردت في كتب السير والتراجم لم تكن منظمة ومبوبة بطريقة واضحة بل كانت متباعدة ومتناثر تخضع لنطق المؤلف، فقد ترد عند الترجمة لشخص ما أو للحدث التاريخي، وما يلاحظ كذلك أن المناظرات الإباضية مع المعتزلة أخذت النصيب الأوفر من هذه المناظرات بالمقارنة مع الفرق المخالفة، خاصة مع المالكية يفسر ذلك الى التقارب الفكري في الكثير من المسائل العقيدية والتشريعية بينهما، إضافة الى ذلك امتناع المدرسة المالكية في الخوص في الجدل مع الفرق المخالفة بعد أن حذر أعلامهم من الجدل في العقيدة والفقه، ليرتفع تعداد المناظرات مع دخول أفكار المدرسة الأشعرية التي كانت أفكارها رصيذا جديدا للمذاهب السنية في بلاد المغرب الإسلامي، أما مع الفرق الإباضية فكان النصيب الأوفر للنكارية.

تبين هذه المناظرات مدى تطور الدراسات الكلامية الإباضية ببلاد المغرب بداية من القرن الثالث الى السادس هجري، فأصبح للإباضية المغرب الإسلامي مصادرهم الخاصة في العقيدة والفقه والكلام.

والمتتبع لهذه المنظرات الكلامية يجد تدرجا في التعمق والتعقيد، فتبدو في بعض الأحيان بسيطة ولا تخلو من الطرافة والأسلوب الجدلي، والمغالطات اللفظية أحيانا وأحيانا أخرى بالتجريح وازدراء الخصم والنيل منه. تعبر المنظرات عن صورة من صور التواصل العلمي والحضاري بين الإباضية والمالكية في بلد المغرب الإسلامي

المصادر

- ابن الصغير(1986).أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- أبو زكريا، يحيى الورجلاني.(1982). سير الأئمة وإخبارهم ط2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الخشني. (1994). طبقات علماء إفريقية. ط1. القاهرة: مكتبة مدبولي.
- الشماخي.(2009). كتاب السير، ط1. بيروت: دار المدار الإسلامي.
- الغزالي، أبو حامد. (2005). إحياء علوم الدين، ط1. بيروت: دار ابن حزم.
- المالكي، أبو بكر عبد الله. (1994). رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسألكهم وسير من أخبارهم وفضايلهم وأخبارهم وأوصافهم. ط2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الورجلاني، أبو يعقوب يوسف. (2006). الدليل والبرهان. ط2. مسقط: نشر وزارة التراث والثقافة.
- الوسياني. (2009). سير. ط1. مسقط: نشر وزارة التراث والثقافة.
- الونشريسي، أحمد بن يحيى. (1981). المعيار المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- عياض، القاضي أبي الفضل. (1998). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن الأثير. (1987). الكامل في التاريخ. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الجييطالي، إسماعيل. (1983). قناطر الخيرات. مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة.
- الدباغ. (1968). معالم الإيمان ط2. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- الدرجيني، أبي العباس أحمد. دون تاريخ طبقات المشائخ، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة: مطبعة البعث.

المراجع

- المجذوب، عبد العزيز.(1975). الصراع المذهبي في إفريقية الى قيام الدولة الزيرية. تونس: الدار التونسية للنشر.
- المنصوري، المبروك. (2011). الفكر العقدي وأسس سيادة الإسلام. ط1. تونس: الدار المتوسطية للنشر.
- النامي، عمرو خليفة. (2002). دراسات عن الإباضية. ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- بحاز، ابراهيم، (1993). الدولة الرستمية- دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية-، ط2. غرداية: نشر جمعية التراث.
- حجازي، عبد الرحمن عثمان. (2000) تطور الفكر التربوي في الشمال الإفريقي. ط1. بيروت: المكتبة العصرية.
- روجي ادريس، الهادي. (1992). الدولة الصنهاجية ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- كوبرلي، بيير. (2010). مدخل الى دراسة الإباضية وعقيدتها. ط1 مسقط: مكتبة الضامري.
- معمّر، علي يحيى. (2003). الإباضية بين الفرق الإسلامية. ط3. غرداية: المطبعة العربية نشر جمعية التراث.
- السلامي رشيد. (2008). "مراجعات حول الصراع السني الإباضي ببلاد المغرب". في كتاب حسن حافظي علوي، الصراع المذهبي ببلاد المغرب، ط2، الدار البيضاء: مطبعة النجاح. ص. ص (83- 124).
- طالب، عمار. (2013). آراء الخوارج الكلامية. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعة.
- ليفيتسكي، تاديوس. (2000). المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية، ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- مجموعة من الباحثين. (2000) معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب الإسلامي، ط2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.